فلسفة التاريخ المعاصر ومراحل التغير الاجتماعي :

تحاول فلسفة التاريخ المعاصرة برغم الاتجاهات الرئيسية أن تقترب من علم الاجتماع وأن تعتمد في أكثر دراساتها على إحداث ما وصل إليه العلم في أبحاثه المختلفة إلا أنه بالرغم من ذلك خطا لما أنها تحاول أن تخضع هذا الخضم الواسع من العلاقات المتشابكة المعقدة إلي قانون عام شامل لا مدخل للظن أو الاحتمال عليه – فإنها ستظل بعيدة عن العلم فإذا ما تخلت عن هذه الصفة فليس من مبرر لوجودها إذا أن علم الاجتماع بقوم لهذه المهنة فقد استقرت مناهجه وأصوله.

إلا أنه بالرغم من ذلك فإنني أعتقد أن فلسفة التاريخ لازمة كأحد العناصر المكملة للحركة العقلية بصفة عامة التي تسود في مجتمع معين والتي يطرب لها كثير من الناس .. فهي بقية ما بقيت الفلسفة وهي باقية .. وسأعرضها هنا لرأي كل من مارت وشبنجلر وسوروكن باعتبارهما يمثلون فلسفة التاريخ المعاصر.

أولاً : مارث ١٨٥٨– ١٩٢٥م :

أهم آرائه أنه يريد أن يقيم فلسفة التاريخ لتكون علم الاجتماع .. ولذلك نعد ما قاله وندلبا ندوريكارت من أن علم الاجتماع علم تطبيعي ولذلك فهو يعني باكتشاف قوانين تخلق قوانين التحول التي تغني بها فلسفة التاريخ .. أي أنه حاول أن يدرس تطور المجتمع الإنساني في ضوء قوانين سوسيولوجية .. ومن ثم عارض الفصل من التاريخ والعلم الطبيعي وحاول جاهداً أن يوجد بين فلسفة التاريخ وبين علم الاجتماع .. وقد كانت لنظرياته أثر كبير في المدرسة الألمانية وخاصة في المدرسين الألمان الذين اعتبروا أن علم الاجتماع تفسير للتاريخ ومن أمثلة هؤلاء الفردفير Weber وكارل مانهايم Man heim [١]

ثانياً : شينجلر Sprngler

لقد أحدث كتابه " تدهور الغرب " The peclineof the west ضجة كبرى في ميادين المعرفة جميعاً وعلى الأخص في ميدان فلسفة التاريخ بل لقد أحيا كتابة هذا فلسفة التاريخ بعد أن كان قد ظن أنها ماتت وتتلخص أهم نظرياته في الأمور الآتية :

١. ارتضى الفصل بين الحقيقة التاريخية والحقيقة الطبيعية كما قال بذلك وندلباند ريكارت إلا أنه لم يخف تفضيه للمنهج التاريخي في معالجة مسائل التاريخ

---

١) محمد عاطف غيث – التغير الاجتماعي والتخطيط – دار المعارف – ١٩٩١م – ص ٦.

فـإذا كـان المـنهج الطبيعـي يصـلح خاصـة للعـالم الطبيعـي فإنـه يقصـر عـن تفسـير التـاريخ الإنسـاني ولـذلك فـالمنهج التـاريخي هـو الوحيـد الـذي يوقفنـا علـى حقائق التاريخ الإنساني.

٢. وأهـم شـيء فـي فلسـفة نظريتـه فـي الحضـارة والتـاريخ العلمـي هـو تـاريخ بعـض المـدنيات الكبيـرة والمشـاهد أن كـل حضـارة كبـرى عبـارة عـن كـائن عضـوي يولـد وينمـوا ويتـدهور ويمـوت .. وكـل حضـارة كبـرى لهـا خصائصـها المميـزة إلا أنهـا جميعاً تتفق في تاريخها العام واتجاهها جميعاً نحو الفناء.

٣. والدرجـة الأخيـرة مـن تـاريخ الحضـارة هـي المدنيـة – بأقصـى مـا يمكـن أن يحملـه هـذا اللفـظ مـن معنـى فنـي – وهـذه تتميـز بوجـود مـوع مـن سـيطرة المراكـز العليـا التي تعتبر رئيسية في المدينة.

ثالثاً : سوروكن Sorokin

يـرى سـوروكن أن الثقافـة تطـور فـي اتجـاه معـين لمـدة معينـة علـى نحـو مسـتقيم ثـم يحـدث أن يتغيـر الاتجـاه وقـد يكـون التغيـر علـى نحـو مسـتقيم أيضـاً أو ذبذبـة أو مطابقـاً لمنحنـى معـين ولكـن مـن المهـم أن كـل تطـور يبـدأ .. لابـد أن يصـل إلـى نهايتـه ويبـدأ تطور جديد وهكذا [٢]

وقـد تعـود الثقافـة فـي مجـرى هـذه التغيـرات الغيـر تامـة والغيـر منتظمـة إلـى بعـض الحـالات التـي كانـت عليهـا سـابقاً .. ولـذلك يقتـرب التطـور إلـى مـا يشـبه الـدائرة كمـا هـو متوقع في تاريخ المجتمع الإنساني.

ويمكـن تفسـير حركـة التطـور هـذه بالآثـار التـي يتركهـا أحـد صـغار الـدجاج فـي سـيره علـى الرمـال – بـالرغم مـن أنـه سـيجد فـي الحركـة إلا أنـه يغيـر اتجاهـها باسـتمرار فـي دوائـر غيـر منتظمـة – ولكـن الشـيء الثابـت فـي حركتـه أنـه بـالرغم مـن اسـتمرار تقدمـه إلا أنه لا يتبع طريقة ولا يحافظ على اتجاهه في دقة وتحديد .. الخ.

ويـرى علـى أسـاس الدراسـات والأبحـاث المستفيضـة الـذي ضـمنتها كتابـة الكبيـر Social and cultural Dynamics أن الثقافة وإن كانت لا تسير على نظام أو اتجـاه معـين أو تتبـع خطوطـاً دائريـة فإنهـا تتميـز بخاصـة دائمـة .. وهـذه الخاصـة تريـد فـي صـميمها إلـى الـروح العامـة أو المظهـر المميـز العـام – وتـتلخص فـي أن الثقافـة تميـل إلـى

٢) محمد عاطف غيث – التغير الاجتماعي والتخطيط – مرجع سابق – ص١٠.

التذبذب في فترات غير منتظمة من ثلاث نماذج ثقافية كل له أصوله العامة أسسه الروحية وما يصاحبه من تركيب اجتماعي خاص .

١- الأول الثقافة الفكرية Ideational culture

وفيها تدرك الحقيقة على أنها شيء غير محسوس وغير مادي وهذا يؤدي إلى قيام ضرب من الأدب الروحي والموسيقى وإلى قيام حكومة ثيوقراطية ونظام عائلي في التنظيم الاجتماعي واتجاه رمزي تجريدي في الفن.

٢- الثاني هو الثقافة المادية أو الحسية Sensate culture

ويتميز بأن الحقيقة واقعية تجريبية ومن ثم فالالتجاء إلى الحكومة الأوليغركية وإلى الأدب الواقعي وإلى الفلسفة الأبيقورية ويعتقد سروكن أن الثقافة الغربية وصلت اليوم إلى أقصى مراحل الثقافة الحسية أو المادية وهي بسبيلها اليوم إلى التحول إلى الثقافة الروحية أو المثالية.

٣- الثقافة الروحية أو المثالية Idealistic culture

وتتميز بأن الحقيقة تتجه نحو المثاليات والأيديولوجيات سواء كانت أيديولوجية سياسية أو اقتصادية أو دينية أو اجتماعية أي أن الاتجاه يكون إلى الحكومات الديمقراطية وإلى الفلسفات المثالية الأفلاطونية ويغلب التفكير الروحي على التفكير المادي وتصبح المعرفة عقلية لا تجريبية هذا ويختلف سوروكن عن فلاسفة التاريخ في موقفه من تفسير التطور الاجتماعي التاريخي بوجه عام فهو.

أ. لم يقطع برأي محدد حازم في الاتجاه الذي يتخذه هذا التطور بل وقف موقفاً لا إدارياً واكتفى بأن الاحتمالات الممكنة في هذا السبيل :

ب. وهو بعد ذلك لم يبن تعليماته على أسس افتراضية أو على مجرد تجريدات عقلية بل على أسس الأبحاث العلمية الواقعية التي يقدمها علم الاجتماع الذي يعد سوروكن الآن من أعلامه.

وإن كانت فكرة التغير في المجتمع ظلت مهملة إلى وقت طويل ، فذلك يرجع للاعتقاد الذي كان سائداً عن ثبات واستقرار الأنساق الاجتماعية وحتى عندما اهتم علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا .. بدراستها كانوا يعتبرون التغير شيئاً استثنائياً أو عارضاً . وأن عوامل التغير تؤدي لعوامل مختلفة ، ومن ثم يتوقف فاعلية هذه العوامل على مدى تأثرها بفكرة البناء الاجتماعي والوظيفة إذ أن العملية والوظيفة والبناء مراجل ثلاث يجمعها إطار فكري واحد يساعد

على تفسير الحياة الاجتماعية وتحديد أبعادها ومظاهر تغيرها. [٣]

وبهذا يشير التغير في علم الاجتماع للاختلافات التي يمكن ملاحظتها في البناء الاجتماعي وظائف عناصره .. ومن ثم صيغت نظريات التغير المبكرة من الأفكار التطورية التي ميزت الفكر الاجتماعي في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، حيث تصور أو حسب كونت تغير المجتمع البشري بناء على تطور العقل الإنساني.

ولما كان للتغير هذه الطبيعة الإنسانية فقد أصبح ضرورياً أن ندرسه خلال فترة طويلة نسبية حيث يكون المدى الزمني متضمناً لأجيال عديدة حتى يمكن الوقوف على نتائج التغير بصورة ملموسة وقد كان هناك خلطاً واضحاً كاد أن يشمل أغلب النظريات السوسيولوجية حول مفاهيم التقدم والتطور والتنمية والتحضر ومفهوم التغير ، حتى بلغ في بعض الأحيان ربطها في مفهوم واحد حتى كادت تظهر في بعض وكأنها مصطلحات مترادفة وترتبط ببعضها ارتباطاً منطقياً.

ومن ثم نجد التغير الاجتماعي عملية مستمرة تخضع لها بيئة الفرد الاجتماعية الخارجية والداخلية على السواء وتؤدي إلى بعض العمليات المجمعة والمنفردة ويتطلب ضرورة تكيف الأفراد ومرونتهم وحراكهم الاجتماعي وفقاً لما يتطلبه التغير من مستحدثات ومستلزمات ، فكل ما في المجتمع من مظاهرة المادية والروحية والجغرافية من تقدم أو نكوص ، من قبيل التغير الاجتماعي وهو أحد مظاهر الطبيعة الديناميكية للمجتمع.

---

٣) سناء الخولي – التغير الاجتماعي والتحديث – دار المعرفة الجامعية – مرجع سابق ص ٣٥.